موقع الفكر اللغوي العربي في الخطاب الديني لدى الزمخشري والكشاف نموذجا

Dr. M.S.Mohamed Saleem
Department of Arabic and Islamic Studies, University of Peradeniya, Sri Lanka.
Mobile:0094777407978, E-mail:msaleem@pdn.ac.lk

ABSTRACT

This research is aimed to find the language exegetics in Zamakhsyari's attempt to interpret Al-Quran. He also expertise in the Arabic language, rhetoric, literature, and Islamic studies. He is also well-known as a Mu'tazilah scholar. This study tries to find the language aspects related to Zamakhsyari's explanation of religious discourse. According to Ibn Khaliikan, Zamakhsyari is a scholar in Arabic grammatical, language, poetry, and literature. He speaks standard Arabic fluently. Quran is the guidance for humankind, and it is inimitability. It also contains beautifulness in language and style. Hundreds of Mu'tazilah scholars had written interpretation of Al-Quran. However, one noticeable interpretation book that could provide a comprehensive explanation is an interpretation book written by Zamakhsyari known as al-Kashshaf. This study focuses on explaining Zamakhsyari's linguistic thought in interpreting the Quran.

***Keywords**: Linguistic thought, Religious discourse, Arabic*

المقدمة

حظيتفسير معاني الكلمات القرآنية باهتمام كبير لدى الزمخشري، وهولم يقتصر على طريق واحد، بل اتبع في تفسيراتهللقرآن الكريم أساليب عدة. ونقوم في هذه الدراسة باكتشاف تلك الطرق المتفرقة التي مهدت لإتيان مدرسة التفسير كاملا شاملا ينحى إليه الباحث قديما وحديثا لكون تفسيره مرجع البحث لمسائل الظواهر اللغوية، والأدبية، كما يحل كثيرامن العلوم الإسلامية.يواجه العصر الحاضر في دنيا اللغات تحديات إلى حفظ فصاحة اللغة العربية وتنفيذ وتطبيق علم البلاغة ليقوم بنهضتها الجديدة، لأن العربية كادت أن تستعمل بلهجاتها الدارجة المكسرة وعدم الفصاحة، فحفظ اللغة العربية الفصحى من حفظ كتاب الله العظيم، وحفظ شعار الإسلام، وتراث المسلمين. ولكن العالم الحاضر اليوم، وعالم العربية خاصة مما يواجه تساؤلات العولمة، ففكرة المعتزلة المنبنية على الرأي، والعودة إلى دراستها هو الحل الوحيد لإحياء عربيتنا في مراكز العلم والبحوث[1].ولدجار الله محمود بن عمر بن محمد بزمخشر في السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧هـ، وتوفي في جرجانة سنة ٥٣٨هـ[2]. واشتهر

[1] . النواحي البلاغية في القرآن كما فسرها الزمخشري في الكشاف، رسالة دكتوراه، محمد سلطان محمد سليم، ص:٦

[2] معجو البلدان، ج٢، ص: ١٢٢، ح ٣، ص: ١٤٧

بين الأوساط العلمية بجار الله الزمخشري، ونال مكانة علمية رفيعة وصار علما من أعلام اللغة بسبب حبه للعرب والعربية كما يقول في مقدمة كتابه المفصل بعد أن حمد الله وأثنى عليه أن جعله من علماء العربية يقول: "وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين"[3]، ويعتبر الزمخشري أحد أكبر علماء المعتزلة في القرن السادس الهجري، وأحد آخر كبار الرعيل الاعتزالي، والمحكم المتقن في جبهة المعتزلة. تناول الزمخشري الروايات اللغوية من الأعلام الكبار ومنهم عبد الله بن عباس[4]، ومجاهد[5]، وعكرمة بن عبد الله[6]، وقتادة[7]، والكلبي[8]، وسيبويه[9]، والخليل بن أحمد[10]، والأخفش[11]، والأصمعي[12]، وابن السكيت[13]. وغيرهم كثيرون من أئمة اللغة العربية وآدابها يذكر من رواياتهم في تفسيره.

وينقل الزمخشري ممن سبقوا من الأعلام البارزين في اللغة العربية أقوالهم نقلا حرفيا أو نقلا معنويا أو نقلا لرأيهفي كثير مما هو يقوم بتفسيره للذكر الحكيم.

لم يكن الزمخشري بدعا في الحصول على العلم، ولكنه أدرك أفاضل عصره، لأن أقاليم خراسان، وخوارزم، وما وراء النهر وغيرها كانت ممتلئة بعلماء وأدباء، ومنهم الكثيرون قد برعوا في الإنتاج بالعربية، والفارسية. مثل الوطواط الذي كان أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بذخائر كلام العرب، ودقائق النحو، والأدب، وكان ينشئ في آن واحد بيتا بالعربية من بحر، وبيتا بالفارسية من بحر آخر لما سبق، ويمليهما معا. وكان كذلك الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الحوفي المتفقه على أبي حامد الإسفرايني ببغداد، وكان بيته معمورا بالعلماء، وأبو القاسم محمود بن عبد العزيز العارض الخوارزمي الملقب بشمس الدين، وهو من أفضل الناس في عصره في علم اللغةوالأدب. وكان الزمخشري يدعوه الجاحظ الثاني، لكثرة حفظه، وفصاحة لفظه. وكانت الحياة الثقافية، والنهضة العلمية والأدبية تتطور في أقاليم خراسان وخوارزم، حتى انتشرت فيها البذور العربية والأدبية والعلوم الإسلامية، وسرعان ما أعطت ثمارها بكثرة من العلماء والمؤلفين والأدباء في أرض خوارزم مثل أبي علي الحسن بن المظفر

[3] . شرح المفصل لابن يعيش، ج١، ص: ٥
[4] . الكشاف،ج ١، ص: ٥٢٧
[5] . المصدر السابق، ج١، ص: ١٣٥
[6] . المصدر السابق، ج ٢، ص: ٣٩٩
[7] . المصدر السابق، ج٣، ص: ٢٩١
[8] . المصدر السابق، ج ٤، ص: ٢٧٨
[9] . المصدر السابق، ج٢، ص: ٣١١
[10] . المصدر السابق، ج٣، ص: ٤٥٣
[11] . المصدر السابق، ج٣، ص: ٣٤٠
[12] . المصدر السابق، ج٣، ص: ٢١٣
[13] . المصدر السابق، ج١، ص: ١٣٣

الشاعر وهو شيخ الزمخشري، وغيره كثيرون، حتى صارت خوارزم ثرية بعلمائها وأدباءها في حياة الزمخشري وقبل حياته وبعده[14]. قال بن السمعاني عن الزمخشري: كان ممن برع في علم الأدب، والنحو، واللغة. لقي الكبار ودخل خراسان عدة نوب. وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه، وتلمذوا له، وكان علامة الأدب، ونسابة العرب[15].

موقف الزمخشريفي استدلاله بالأشعار العربية

مع نضوج الزمخشري واكتمالهفي العلوم العربية وآدابها وفي كل من فنون العربية أنه لم يخرج عن حدود علماء اللغة العربية، ولم يتجاوز عن خطوطهم في الاستدلال، وأتى بتفسير الكلمات والآيات القرآنية بجلها مستدلا من شعراء العربية لأعصر مختلفة. والشعراء الذين يستشهد بشعرهم الزمخشري على أربع طبقات:

1. الجاهليون، هم الذين عاشوا في الجاهلية ولم يدركوا الإسلام، وهم رواد الأدب القديم، وفحول الشعراء[16].
2. المخضرمون، وهم الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام.
3. الإسلاميون، وهم الذين عاشوا في صدر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي.
4. المحدثون، وهم من جاءوا بعدهم.

واختار الزمخشري بكلام من يوثق بهم من هؤلاء الشعراء مسلما كان أو غير مسلم ويستشهد بأشعارهم وأقوالهم اللغوية للاستدلال في تفسير كلام الله تعالى. وقد كان يفهم: أن الكلمات التي كانت تستعمل في الأشعار العربية كلمات غريبة اليوم أن هذه الكلمات كانت يومذاك فصيحة أي: مأنوسة مألوفة، ذلك لأن ممارسة الجاهلي للحياة بين الخيام وعلى الإبل مألوفة عنده[17].واستدلبشعرهم في المسائل اللغوية الواردة في الكشاف. ومن الشعراء الجاهليين الدين يستدل بهم الزمخشري امرؤ القيس[18]، والمرقش الأصغر[19]، وسلامة بن جندل[20]، والنابغة الذبياني[21]، وزهير[22]، وأمية بن أبي الصلت[23]، والأعشى[24].

14 . النواحي البلاغية في القرآن كمت فسرها الزمخشري في الكشاف، محمد سلطان محمد سليم، رسالة دكتوراه، ص: ٣٢، ٣٣
15 . تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلاملذهبي، مجلد ١١، ص: ٦٩٧
16 . تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، ج١، ص: ٥٩
17 تاريخ الأدب العربي، ج١، ص: ٧٩
18 الكشاف، ج١، ص: ٢٦٢
19 . المصدر السابق، ج٢، ص: ٥١٤

ومن المخضرمين من الشعراء الذين يستدل بهم الشماخ[25]، وأبو ذؤيب[26]، وحميد بن قور الهلالي[27]، والأشعث بن قيس[28]، ولبيد[29]، وحطيئة[30]، والنابغة الجعدي[31]، وحسان بن ثابت[32].، وغيرهم كثيرون.

وهؤلاء الشعراء المخضرمون نظموا الشعر في الجاهلية ثم أسلموا وظلوا ينظمون الشعر. وقد قال هؤلاء الشعر في العصرين كليهما[33]. وفقد الأدب المخضرم كثيرا من الأغراض والمعاني الجاهلية وتبدل بها أغراضا ومعاني إسلامية، أما أسلوبه فبقي جاهليا في الأكثر[34].

ومن الشعراء الإسلاميين الذيناستدل بهم ابن مفرغ[35]، وليلى الأخيلية[36]، والأخطل[37]، وكثير[38]، وجرير[39]، والفرزدق[40]، وذو الرمة[41]، والطرماح[42]، وغيرهم كثيرون يستدل بهم الزمخشري في المعاني اللغوية في تفسيره.

واختلفت أغراض الخطابة ومعانيها في الإسلام منها في الجاهلية، كما اتفق في الشعر. ولكن أسلوبها ظل كما ظل أسلوب الشعر أيضا جاهليا: قصرا في الخطب وإيجازا في الجمل مع شيء كثير من الموازنة وشيء قليل من السجع. يضاف إلى ذلك اقتباس أو تضمين للأمثال والأشعار. وزاد الخطباء في الإسلام الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث لرسول الله[43].

---

[20] المصدر السابق، ج٢، ص: ٣٨٤
[21] المصدر السابق، ج ٢، ص: ٣١٦ .
[22] المصدر السابق، ج١، ص: ٢٥٦ .
[23] المصدر السابق، ج١، ص: ٢٤٤ .
[24] المصدر السابق، ج٢، ص: ٣٥٢
[25] المصدر السابق، ج١، ص: ٢١٤ .
[26] المصدر السابق،ج٣، ص: ٥٦. .
[27] المصدر السابق، ج٣، ص: ١٢٨
[28] المصدر السابق، ج٤، ص: ٢١٣ .
[29] المصدر السابق، ج١، ص: ٦١٠، .
[30] المصدر السابق، ج٢، ص: ٩٨ .
[31] الأعلام، ج٥، ص: ٢٠٧ .
[32] الكشاف، ج٢، ص: ١٧٦ .
[3333] تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ج١، ص: ٢٦٠.
[34] تاريخ الأدب العربي، ج١، ص: ٢٥٥ .
[35] الكشاف، ج١، ص: ٥٢٤ .
[36] الكشاف، ج١،ص: ٤٥٧ .
[37] المصدر السابق، ج١، ص: ٣٢٨
[38] المصدر السابق، ج٣، ص: ١٧٤ .
[39] المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٧ .
[40] المصدر السابق، ج٣، ص: ٥٣٤ .
[41] المصدر السابق، ج٢، ص: ٤٧٥ . .
[42] المصدر السابق، ج١، ص: ٢٦٧ .
[43] تاريخ الأدب العربي، ج١، ص: ٢٥٦

ومن الشعراء المحدثين، أبو الطيب المتنبي[44]، وعند استشهاد الزمخشري من هؤلاء الشعراء لا يصرح باسم القائل في معظم الشواهد، ولكننراه يذكر بقوله: قال، أو أنشد، أو ولبعضهم، يجده القارئ للكشاف أمثال هذه العبارات في استشهاد الزمخشري. وكذلك يستشهد بأشعارهم مباشرة باسم صاحب القصائد، على سبيل المثال: قال ابن الرقاع العاملي:

وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم[45].

ومن الشعراء الإسلاميين، جرير وغيرهم يستشهد بهم في الكلمات اللغوية، مثله، اطلع، من قولهم اطلع الجبل إذا ارتقى، مر مطلعا لذلك الأمر: أي عاليا مالكا له[46].

ويستشهد بشعر ذي الرمة على ابدال السين صادا على سبيل المثال للذكر في كلمة "سقر" في قوله تعالى: "يمن يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر[47]"فمثل: سقر علم لجهنم، من سقرته النار وصقرته إذا لوحته: قال ذو الرمة:

إذا ذابت الشمس أنقى صقرانها بأفنان مربوع الصريمة معبل[48]

ويستشهد الزمخشري بدليل واحد لمواضع عديدة، ومثاله معنى العفو في القرآن الكريم: " ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو"[49]، العفو نقيض الجهد، وهو أن ينفق ما لا يبلغ انفاقه منه الجهد واستفراغ الوسع، قال: خذي العفو مني تستديمي مودتي[50]، وأتى نفس العبارة في تفسير الآية: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"[51]، العفو ضد الجهد، قال:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب[52]

ومن المزايا الخاصة للزمخشري اختيار الاستعمال الجيد والأفصح من الشواذ في جميع أحواله، ومثاله: يكاد البرق يخطف أبصارهم"[53]، في قراءة يخطف بكسر الطاء، والفتح أفصح وأعلى[54]، ووفقه القرطبي

44 . المصدر السابق، ج١، ص: ٤٦٣
45 . المصدر السابق، ج١، ص: ٣٨٤
46 . المصدر السابق، ج٢، ص: ٥٢٢
47 سورة القمر، الآية: ٤٨
48 . الكشاف، ج٤، ص: ٤١
49 . البقرة، الآية:٢١٩
50 . الكشاف، ج١، ص: ٣٦٠
51 .الأعراف، الآية: ١٩٩
52 . الكشاف، ج٢، ص: ١٣٨
53 . البقرة، الآية: ٢٠
54 . الكشاف، ج١، ص: ٢١٩

في ترجيح هذه القراءة بقوله : ويخطف ويخطف بكسر الطاء والفتح لغتان، قرئ بهما وقد خطفه بالكسر يخطفه خطفا وهي اللغة الجيدة[55].

جهود الزمخشري في اللغة العربية عموما

ولو اختلفت الفنون العربية التي قدمها الزمخشري للعالم العربي والإسلامي وإن مساهمته في اللغة العربية لغزير ويذكر أقواله من العيون العربية والمصادر المهمة.وكتابه أساس البلاغة كتاب قيم في البحث اللغوي عن اللفظ ومعانيها حقيقة، ثم يتابعفي استعمالاتها المجازية في الكلام. ويحاول بهذا الكتاب أن يوحي دارسي العلوم اللغوية العربية أن يجعل اللفظة حيوية بإتيانها ففي تركيب فصيح. وهذا الكتاب وكتابه المفصل في علم اللغة والنحو ما أنتج مما بثه أستاذه أبو مضر النحوي المتوفى سنة ٥٠٧ هـ. تخير فيه ما وقع في عبارات المبدعين من التراكيب التي تملح وتحسن، وأفرد المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح. ومنهجه فيه يقوم على شرح المعاني الحقيقية للكلمات وإضافة الاستعمالات المجازية، وذكر تصاريف الكلمات ومشتقاتها وجموعها ومعاني كل منها. وبذلك جمع هذا المعجم المفردات ومعانيها الحقيقية والمجازية وكثيرا من النصوص البليغة. ومن أمثلة ذلك قوله في مادة "أبد": لا أفعله إبد الآباد وأبد الأبيد وأبد الآبدين. وتقول: رزقك الله عمرا طويل الآباد بعيد الآماد. وأبدت الدواب وتأبدت: توحشت، وهي أوابد ومتأبدات. وفرس قيد الأوابد: وهي نفر الوحوش. وقد تأبد المنزل: سكنته الأوابد. وتأبد فلان: توحش. وطيور أوابد: خلاف القواطع. ثم يقول: ومن المجاز: فلان مولع بأوابد الكلام، وهي غرائبه، وبأوابد الشعر وهي التي لا تشكل جودة.

قال الفرزدق:

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم وأوابدي بتنحل الأشعار

قال النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي إلى أوابد الأشعار[56].

ويقول بروكلمان: وهو معجم يهتم بالاستعارة والمجاز، والفائق في غريب الحديث أيضا كتب بالزمخشري، وهذ الكتاب مؤلف على حسب حروف المعجم، وطبع في ثلاثة مجلدات. وكتاب الأمكنة والجبال والبقاع المشهورة في أشعار العرب، وله ترجمة إلى اللاتينية. وكتاب الزمخشري أيضا، أعجب

[55] . تفسير القرطبي، ج١، ص: ١٩٢
[56] . أساس البلاغة للزمخشري، ص: ١

العجب في شرح لامية العرب. وشرح مقامات الزمخشري، وكتابه المستقصى في أمثال العرب، وجواهر اللغة ومعجم عربي فارسي، وهذه الجهود للزمخشري شاهدة على عمله اللغوي[57].

نموذج الزمخشري في تفسير المفردات للقرآن الكريم

واتبع الزمخشري في تفسيراته لمفردات الكلمات القرآنية أساليب مختلفة ومتباينة.وما قام به الزمخشري في ذكر المعلومات لتفسير القرآن الكريم، والأساليب التي يذكرها يمهد للدراسات اللغوية الحاضرة كعلم اللسانيات، وعلم اللغة، وفقه اللغة، والسيمائية، وعلم الدلالة، والمشترك اللفظي والمعنوي، والاشتراك اللفظي، والاشتقاق، والفروق، والترادف اللفظي وغيرها مما نتكلم عنه الآن في الدراسات اللسانية.ومن أروع ما يذكر الزمخشري: "إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكره الجاحظ في كتاب نظم القرآن: فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص استيضاح معجزة رسول الله[58].وكان طلوع الزمخشري في وقت مناسب في الفترة التي بدأ فيها الذوق السليم يميل فيها الذوق السليم يميل إلى الفساد والانحراف عن طريقه المعهود شيئا فشيئا، وفي الوقت الذي بدأ فيه الطبع الذي كان مصدر الالهام ومنبع الفصاحة للعربي تنسى أو تقل درجته في نفوس العرب. حدث كل ذلك عندما اختلط العرب بشعوب الأمصار التي تم فتحها وضمها إلى الدولة الإسلامية، حيث كان تأثر اللغة العربية بذلك الاختلاط أمرا حتميا، ومن ثم ظهرت الحاجة إلى وضع أصول وقواعد تمكن طلاب اللغة العربية والأدب من تجنب الخلل، أو الوقوع في الخطأ في الأسلوب والبيان. ويمكن أن نحصر عمل الزمخشري كما يأتي على سبيل المثال:

[57] . راجع تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ج٥، ص: ٢٣٢ لمزيد من المعرفة

[58] . تفسير الكشاف، ج١، ص:٤٢،٤٣

ذكر الاستعمال الذاتي أولا ثم تفسيرهللمعاني الحسية، وهذا الطريق من ميزة معاني الألفاظ، فإذا فسر الزمخشري كلمة ‘‘أفضتم" أي دفعتم بكثرة، وهو من إفاضة الماء وهو صبه بكثرة[59]، فالفيض: النهر، وفيض البصرة: نهرها[60]. أفاض، ولها معان حسية حقيقية.

ويمكن تقسيم ما ورد فياستعمال مسائل الابدال بين ألفاظ كثيرة بتغيير حرف واحد.وهي كلمة الأز أي: الهز، كشط أي قشط، وجف أي وجب. وفي قوله تعالى: "ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزا"[61]، أن الأزوالهز والاستفزازأخوات ومعناها تهييج، وشدة الإزعاج، أي تغريهم على المعاصي وتهيجهم بالوسواس والتسويلات[62].

ومن الأمثلة الأخرى على علاقة التجانس السراط والصراط، والنزع والنسغ، وكشطت وكشفت وأزيلت كما يقشط الإهاب عن الذبيحة والغطاء عن الشيء، واعتقاب الكلف، والقاف كثير، يقال: لبكت الثريد ولبقته والكافور والقافور[63].

يقول الزمخشري: واعتقاب الكاف والقاف كثير، لكن مما جاء في الكشاف من اعتقاب الكاف والقاف، أي الدك والدق، وقنع وكنع[64]. وكشط وقشط في علاقة التقارب بين صوي المبدل والمبدل منه: عزر – أزر[65].

وجف ووجب، جاء في الآية: "قلوب يومئذ واجفة" أي: يوم ترجف، وجفت القلوب واجفة شديدة الاضطراب، والوجيب والوجيف أخوان[66]. فالإبدال وقع بين الفاء والباء، وهما متباعدان مخرجا وصفة، وعدهما الخليل الشفوية[67]. ولا يذكر الخلاف فيما يذكر بصوت الباء، ولكن مخرج الفاء باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا[68]. ومما يذكر الزمخشري في الكشاف: من الابدال بين الصوتين متباعدين وبين المخرجين متقاربين كلمتا لمز ولهز[69]. ورين وغين وغيم[70]، وأسر وأشر[71].

[59] . الكشاف، ج١، ص:٣٨٤
[60] . لسان العرب، ج٢،ص: ١١٥٤
[61] . مريم، الآية: ٨٣
[62] . الكشاف، ج٢، ص: ٥٢٤
[63] الكشاف، ج٢، ص: ١٣٩
[64] . الكشاف، ج٢، ١١٤
[65] . الكشاف، ج١، ص: ٦٠٠
[66] . الكشاف، ج٤، ص: ٢١٢
[67] . العين، ج١، ص: ٥٨
[68] . الكتاب، ج٤، ص: ٤٣٣
[69] . الكشاف، ج٤، ص:٢٨٣
[70] . المصدر السابق، ج٤، ص:٢٣٢
[71] . المصدر السابق، ج٢، ص: ٢٤١

وشعر الزمخشري بين الألفاظ التي تشترك في حرفين، وذهب إلى الثنائية للغة إذ أشار بعض علماء فقه اللغة قديما وحديثا إلى أن الألفاظ تعود أصولها التاريخية إلى أصول ثنائية زيد عليها حرف ثالث في مراحل تطورها التاريخي، وهذا الحرف الثالث ينوع المعنى العام، ومال ابن جني إلى تقرير هذه الظاهرة، وأن هذه الأصول الثنائية نشأت عن حكاية الأصوات الطبيعية المقارنة للفعل أو الحدث الذي تدل عليه تلك الأصول[72].وما وردت في الكشاف مثالا لما سبق ذكره كلمة أله، دله، وعله، وأنفق، وأنفذ.

وإن حالة إظهار الإيمان، وإبطان الكفر من خصائل النفاق، ومشركو مكة كانوا كذلك مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وشهادة عليه أنزل الله تعالى: "يخادعون الله" وإن الخدعة لله تعالى وفيه استعارة تمثيلية حيث شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعية تخادع سلطانها بحال رعية تخادع سلطانها. وقوله تعالى:" في قلوبهم مرض" واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازا، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول: في جوفه مرض. والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب، كسوء الاعتقاد، والغل، والحسد والميل إلى المعاصي، والعزم عليها، واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائض ذلك[73].

والعمه: مثل العمي، إلا أن العمي عام في البصر والرأي، والعمه في الرأي خاصة، وهو التحير والتردد، لا يدري أين يتوجه. ومنه قوله: بالجاهلين العمه، أي الذين لا رأي لهم ولا دراية بالطرق. وسلك أرضا عمهاء: لا منار بها.

ومعنى اشتراء الضلالة بالهدى: اختيارها عليه واستبدالها به، على سبيل الاستعارة، لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر، ومنه:

أخذت بالجمة رأسا أزعرا وبالثنايا الواضحات الدردرا

وبالطويل العمر عمرا حيدرا كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وعن وهب: قال الله عز وجل فيما يعيب به بني إسرائيل: "تفقهون لغير الدين، وتعلمون لغير العمل، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة". فإن قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى؟ قلت: جعلوا لتمكنهم منه وإعراضهم لهم كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه

[72] . تفسير الكشاف للزمخشري، دراسة لغوية، ص: ١٣٧

[73] . تفسير الكشاف، ج١، ص: ٩٨

واستبدلوها به، ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة.

والضلالة: الجور عن القصد وفقد الاهتداء. يقال: ضل منزله، وضل دريص نفقه، فاستعير للذهاب عن الصواب في الدين. والربح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي: الشف، من قولك: أشف بعض ولده على بعض، إذا فضله. ولهذا على هذا شف. والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذي يبيع ويشتري للربح. وناقة تاجرة: كأنها من حسنها وسمنها تبيع نفسها[74].

ويذكر الزمخشري كلمة مناسبة للكلمات القرآنية ويبينها عند ذكره، على سبيل المثال، قوله تعالى: "فلما أضاءت" قلت: ذكر النور أبلغ، لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة. فلو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورا، والغرض إزالة النور عنهم رأسا وطمسه أصلا. ألا ترى كيف ذكر عقيبه "وذكرهم في ظلمات"، والظلمة عن عدم النور وانطماسه، وكيف جمعها، وكيف نكرها، وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة مبهمة لا يتراءى فيها شبحان، وهو قوله: "لا يبصرون". فإن قلت: فلم وصفت بالإضاءة؟ قلت: هذا على مذهب قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل. ولربح الضلالة عصفة ثم تخفت، ونار العرفج مثل لنزوة كل طماح. والفرق بين أذهبه وذهب به، أن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهبا. ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه. وذهب السلطان بماله: أخذه "فلما ذهبوا به"، "إذا لذهب كل إله بما خلق" (المؤمنون:٩١)، ومنه ذهب به الخيلاء. والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه، "وما يمسك فلا مرسل له" (فاطر:٢) فهو أبلغ من الإذهاب. وقرأ اليماني: أذهب الله نورهم. وترك: بمعنى طرح وخلى، إذا علق بواحد، كقولهم: تركه ترك ظبي ظله.

والظلمة عدم النور. وقيل: عرض ينافي النور. واشتقاقها من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا: أي ما منعك وشغلك، لأنها تسد البصر وتمنع الرؤية[75].

الزمخشري وعلوم اللغة العربية

ولا شك أن كتاب الزمخشري قد احتوى من علوم شتى كالبلاغة والأدب والفقه والقراءات واللغة والنحو والمواد اللغوية ومنها النقل الحرفي من كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج. ومثاله: الخمط: شجر الأراك، وعن أبي عبيدة: كل شجر ذي شوك، وقال الزجاج: كل نبت

[74] . تفسير الكشاف، ج١، ص: ١٠٦، ١٠٧
[75] . الكشاف، ج

أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله[76].ومنها النقل المعنوي لو أخذنا كلمة صعيد فقال الزجاج: هو وجه الأرض ترابا كان أو غيره، وإن كان صخرا لا تراب عليه[77]. وعند نقل المادة اللغوية مثيرا ما يورد الرأي بألفاظ قائله، إما كاملا أم مجزأ، ومثاله: الكنود: الكفور، وكند النعمة كنودا ومنه سمي كنده لأنه كند أباه ففارقه وعن الكلبي: الكنود بلسان كنده العاصي، وبلسان مني مالك البخيل، وبلسان مضر وربيعة الكفور[78]. والاشتراء استعارة للاستبدال كقوله تعالى: (اشتروا الضلالة بالهدى)، وقوله: كما اشترى المسلم إذا تنصرا.وقوله: فإني شريت الحلم بعدك بالجهل.

يعني ولا تستبدلوا بآياتي ثمنا وإلا فالثمن هو المشترى به.[79]

الخاتمة

وناقشنا في هذه الدراسة عن جهود الزمخشري في كيفية تفسيره لمعاني المفردات للقرآن الكريم وقد حظيت معاني الكلمات القرآنية بتفسيره وتبيينه على أساليب عدة، ولم يقتصر على طريق واحد. وقمنا بدراسة هذا البحث لمسائل الظواهر اللغوية.كلما يأتي به الزمخشري هنا صورة عابرة على هذه الأساليب في تفسير الكشاف من حيث الهدف والغاية. فنأخذ من تفسيره عبرة ونقف عن موقفه موقف المتأمل، فحين ندرس الكشاف نجد مذهب الزمخشري بالوضوح التام، لأنه ركز على الصياغة الفنية للآيات القرآنية. ونرى أنه فعل ما فعل الجاحظ من تأليف كتابه البيان والتبيين. ومعروف أن الجاحظ يتمثل بالجانب الفني أو الصياغة اللفظية. وهو ممن أثاروا قضية اللفظ والمعنى بل هو على رأسهم.والإمام محمود بن عمر بن محمد الزمخشري جبل شامخ، ومنارة عالية، ومعلم من معالم علوم العقل والنقلفي الأوساط العلمية، وهو من أعلام اللغة بسبب حبه للعرب والعربية. وهذه الطريقة التي قام بها الزمخشري طريقة متأخرة في هذا الميدان. وصار الكشاف سجلا لكثير من المباحث البيانية واللغوية والنحوية. وإن عرض لأمر من أمور النحو، فهو يفسر القرآن الكريم يظهر فيه ميزتان: أولاهما روح العالم المحقق المدقق، وثانيهما روح الأديب الذواقة اللماح بل ربما غلب عليه أحيانا إحساسه بالجمال حتى في دقائق الأمور، فإن تصادف وفضل وجها من وجوه القراءات المختلفة كان تفضيله لها نابعا من جمال عبارتها وجلال معناها وإن عرض لأمر من أمور النحو، فهو عرض من يقدر الجمال

[76] . الكشاف، ج٣، ص: ٢٨٥
[77] . المشاف، ج١، ص: ٥٢٩
[78] . الكشاف، ج٤، ص: ٢٧٨
[79] . تفسير الكشاف، ج١، ص: ١٦٠

لفظا ومعنا[80]. وتناول الزمخشري الروايات اللغوية من الأعلام الكبار من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والشعراء الجاهليين والشعراء المخضرمين والإسلاميين المحدثين وغيرهم وقام بذكر رواياتهم في تفسيره. وينقل الزمخشري ممن سبقوا من الأعلام البارزين في اللغة العربية أقوالهم نقلا حرفيا أو نقلا معنويا أو نقلا لرأيه في كثير مما هو يقوم بتفسيره للذكر الحكيم. وتتجلى لنا أهمية هذا الجانب إذا درسنا تفسيره، وتجاربه بتنوعها، وثقافته بعمقها واتساعه بجوانب اللغة فيلقى ما هو جدير به من قارئ، وما أريد أن أنبه إليه هو أن هذه الدراسة غيض من فيض الزمخشري، وهناك ميدان واسع للباحث العربي اللغوي والأدبي ليسرد بالبحث.

المصادر والمراجع

ابن المنظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم، لسان العرب المحيط، دار لسان العرب.

ابن خلطان، أحمد، ١٢٩٩م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة بولاق.

ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت.

أبو زيد، نصر حامد، ٢٠٠٠م، الخطاب والتأويل، ط١، الحمراء، بيروت.

أمين، أحمد، ١٩٨٥م، ظهر الإسلام، ج ١،٢،٣، الطبعة الخامسة، مكتبة النهضة المصرية، مصر.

أمين، دلدار غفور حمد، ٢٠٠٧م، تفسير الكشاف للزمخشري، ط١، دار دجلة، الأردن.

بروكلمان، كارل، ١٩٥٩م، تعريب عبد الحليم النجار، تاريخ الأدب العربي، ج، ١-٥، ط٥، دار المعارف، القاهرة.

التواب، صلاح الدين محمد عبد، ٢٠٠٧م، النقد الأدبي لقديم الخصومات الأدبية، ط١،مكتبة الآداب، القاهرة.

الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجو البلدان، ط١، مطبعة السعادة.

الخوارزمي، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ١٩٩٧م، الكشاف، ط١، دار الإحياء التراث العربي، لبنان.

الخولي، أمين، ١٩٦١م، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط١، دار المعرفة، مصر.

[80] النقد الأدبي لصلاح الدين محمد عبد التواب، ص: ١٧٥.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق بشار عواد معروف، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٢٠٠٣م، مجلد ٤٤، ط١، دار الغرب الإسلامي، المغرب.

سليم، محمد سلطان محمد، ٢٠١٢م، النواحي البلاغية في القرآن كما فسرها الزمخشري في القرآن، كلية اللغات واللسانيات، جامعة مالايا، كوالالمبور.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون،١٩٨٣م، ط٣، عالم الكتب، بيروت.

الصالح، حسين حامد، ٢٠٠٥م، التأويل اللغوي في القرآن الكريم، ط١، دار بن حرم، بيروت.

ضيف، عبد الستار، جار الله محمود بن عمر الزمخشري حياته وشعره، عالم الكتب، القاهرة.

الفراهيدي، خليل بن أحمد، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، ١٤٠٩م، العين، ط٢، مؤسسة دار الهجرة، إيران.

فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ج ١،٢،٣،٤، دار العلم للملايين، بيروت.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، تفسير القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

الكتاني، محمد، ١٩٩٢م، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي، ط١، دار الثقافة، المغرب.